# سياسة الدولة الأموية

# إزاء قبائل الجزيرة وأثرها

الدكتور محمد إحسان النص

# سياسة الدولة الأموية إزاء قبائل الجزيرة وأثرها

الدكتور محمد إحسان النص

## توطئة:

## مواطن القبائل العربية في عصر بني أمية:

لكي نتبيّن صلة الدولة الأموية بالقبائل العربية إزاءها ينبغي أن نبيّن أولا مواطن القبائل العربية في ذلك العصر. وليس لدينا مرجع قديم يسعفنا في معرفة هذه المواطن. ولا مفرّ لنا من الاستعانة بشتى المراجع التي تحدثت عن قبائل الجزيرة العربية وبالمراجع التاريخية القديمة لنخرج بتصور تقريبي للمواطن التي استقرت بها تلك القبائل منذ أوائل العصر الأموي.

وقبل الشروع في بيان هذه المواطن ينبغي أن نذكر أن الجمهرة العظمى من قبائل العرب أخذت بالنزوح في مواطنها في الجزيرة إلى مواطن جديدة في البلاد التي فتحها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطّاب. وهذا هو التحوّل الهام في الحياة القبلية منذ ظهور الإسلام. وبذلك انتقل مركز الثقل القبلي إلى الأمصار المحدثة بدلا من جزيرة العرب. فقد استقرّ جمهور القبائل اليمنية والعدنانية في الكوفة والبصرة وخراسان وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس. ومن هنا نرى أن الدولة الأموية لم تعد تحفل كثيرا بالقبائل العربية التي بقيت في الجزيرة -باستثناء قريش- وغدا من همّها انتهاج سياسة تكفل لها طاعة القبائل ذات الوزن السياسي كالقبائل

القيسية واليمنية في بلاد الشام وقبائل الأزد وسائر اليمن وربيعة ومضر في بلاد العراق وخراسان وغيرها.

كان ثمة دوافع شتى وراء هجرة القبائل العربية من جزيرتها إلى المواطن المحدثة في الأقطار المفتوحة وفي مقدمتها نشر الدعوة المحمدية والجهاد في سبيل الله، وثمة دافع قوي هو الرغبة في الثراء والنزول في مواطن يتوافر فيها الماء والزرع ومختلف ألوان الطعام والشراب. أما القبائل التي اختارت البقاء في الجزيرة فقد آثرت ملازمة اوطانها واحتمال ما قد تتعرّض له من ندرة القوت والماء على مغادرة منازلها التي مازج حبها منها الدماء والنفوس، على قوة الإغراء بحيازة الأموال وتوافر الماء والطعام،، وعلى رغم حضّ الخلفاء الراشدين وعمّالهم القبائل العربية على الهجرة والنزوح من ديارهم في بلاد العرب إلى المواطن الجديدة. وقد ورد في خطبة لخالد بن الوليد ألقاها على المقاتلة من العرب بعد هزيمة الفرس يوم الولجة قوله: "ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الله عزّ وجلّ ولم يكن إلاّ المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولّي الجوع والإقلال من تولاّه ممّن اثّاقل عمّا أنتم عليه"(١).

أجل، لقد ارتضت القبائل التي أقامت في الجزيرة احتمال ندرة الأقوات والخيرات على مغادرة أوطانها ولم تغرها وفرة الأموال والسبي والخيرات بمفارقتها، على أن هؤلاء كانوا قلة قليلة بالقياس إلى القبائل التي نزحت عن ديارها.

ولكي نعيّن مواطن القبائل العربية في جزيرة العرب منذ مستهل العصر الأموي نستعين بالمراجع القديمة التي تناولت القبائل قبل الإسلام(٢). فقد ظلت هذه القبائل بعد الإسلام بوجه عام، تلازم مواطنها التي كانت تستقر فيها قبل الإسلام. ولم يطرأ على خارطة التوزيع القبلي هذه تغير ذو شأن، إلا ما كان من هجرة طوائف من القبائل -ومنها قريش- إلى المدينة في زمن النبي عليه السلام.

استقرت طائفة من القبائل العدنانية والقحطانية في الحجاز وتهامة، فاستقرت قبيلة كنانة بتهامة، ونزلت قبيلة قريش في مكة وماوالاها والمدينة، ونزلت مزينة في جبال رضوى وقدس وآرة إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة، ودار هُذيل إلى الشرق من مكة، وفي شمالها في سراة الحجاز قبيلتا فهم وعدوان القيسيتان، ونزل بنو سُليم في حرتّهم بين نجد والحجاز، وكان موطن ثقيف مدينة الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكة، ونزلت قبيلة أشجع القيسية شرقي الحجاز في أدنى المواطن إلى نجد، ونزلت طوائف أخرى من هوزان ما بين غور تهامة إلى ماوالى بيشة وناحية السراة وحنين وأوطاس.

ومن القبائل اليمانية التي استطونت الحجاز قبيلتا الأوس والخزرج في المدينة ومنذ الإسلام غلب عليهما لقب الأنصار، ونزلت معهما منذ الهجرة النبوية طوائف من قبائل شتى أهمها قبيلة قريش (المهاجرون). ونزلت بعض القبائل اليمانية كعُذرة وسعد هُزيم بوادي القرى وما حوله شمالي الحجاز، ونزلت بلَيّ بتهامة محاذية سيف البحر، ونزلت خزاعة تهامة شمالي مواطن كنانة وقرب مكة، ونزلت قبيلة بجيلة جنوبي الحجاز على مقربة من بيشة وتبالة.

أما نجد فكانت موطن طائفة من القبائل جلّها عدنانية، والقبيلة القحطانية التي استوطنتها هي قبيلة طيّيء، وكانت منازلها شمالي نجد في جبلي أجأ وسلى، وقد جاورتها من قبائل مضر أسد وغطَفان (عبد الله بن غطفان وعبس وذبيان وأشجع)، وكانت منازل أشجع أدنى إلى الحجاز منها إلى نجد. واستقرت طوائف من قيس عيلان جنوبي نجد وامتدت منازلها جنوباً وغرباً وجلّها من بني عامر بن صعصعة من كلاب خاصة.

وفي اليمامة نزل بنو حنيفة وبطون من تميم، وامتدت منازل بني تميم حتى رمل يبرين. كما نزلت بطون أخرى من تميم في الحَزْن والدّهْناء والصَّمان يجاورهم إلى

الشرق أقرباؤهم بنو ضبّة. ونزلت عبد القيس الربعية البحرين في حين نزلت قبائل بكر وعنزة أطراف العراق، دانية من الفرات[٣].

أما بلاد اليمن فكانت موطن جلّ القبائل القحطانية ومنها: هَمْدان والأشعر وكندة ومَذْحج وحِمير. وكانت طوائف القبائل القحطانية قد نزحت إلى بلاد الشام، ومواطن أخرى منذ العصر الجاهلي، فنزحت قبائل الأزد إلى شمالي الجزيرة (يثرب) وشرقيها (عُمان). واستقرت جلّ قبائل قضاعة في بلاد الشام وكثرتها من قبيلة كلب.

تلك هي مواطن القبائل العربية قُبيل الإسلام وبُعيده، وهذا التوزيع القبلي تعرض لبعض التغيير منذ الفتوح الإسلامية، فقد خرجت قبائل كثيرة إلى مواطن جديدة في الأمصار المحدثة، فتناقص عدد القبائل العربية في الجزيرة تناقصاً كبيراً، ومن القبائل التي تضاءل عدد رجالها كثيراً في جزيرة العرب بعد الإسلام قبائل قيس عيلان وتميم وعبد القيس وبكر والأزد.

## ١- سياسة الدولة الأموية إزاء قبائل الجزيرة

### ١- سياسة بني أمية إزاء القبائل عامة:

منذ أن تولّى بنو أمية خلافة المسلمين أدركوا حقيقة هامة، تلك هي أنْ استقرار حكمهم رهن بانقياد قبائل العرب لهم ودخولها في طاعتهم، فعلىً أن قيام الدولة الإسلامية أضعف النظام القبلي الذي كان سائداً قبل قيامها، ومع أن الإسلام ألغى العصبية القبلية وجعل المسلمين جميعاً إخوة في دين واحد يضمّ شتاتهم ودولة واحدة تدين لها قبائل العرب كافة، لم تكن الأحوال عصرئذٍ تأذن بإلغاء النظام القبليّ وقطع الوشائج القبلية، فالقبيلة ظلت تؤلف وحدة اجتماعية لها كيانها المستقل في إطار الدولة الواحدة، وكان لا بدّ من أن يظل النظام القبلي سائداً حقبة من الزمن قبل أن يذوب ويتوارى في إطار مجتمع المدينة، فلم يكن ثمة بديل لهذا النظام في تلك الحقبة. وهكذا وجدنا عمر بن

الخطاب يقيم ديوان العطاء على الأساس القبلي، وكذلك كان ديوان الجند يقوم عليه فكانت كل قبيلة تتولى أمر مقاتلتها، وكان سيد القبيلة بمثابة القائد الحربي لها يندبها للقتال كلما دعت الحاجة إلى تجنيد الجند. بل إن التوزيع القبلي كان هو السائد لدى هجرة القبائل إلى الأمصار واستقرارها فيها، فكان لكل قبيلة خطتها التي تستقل بها، فلم يكن من المتاح عصرئذٍ دمج القبائل بعضها ببعض في البلد الواحد، فكذلك رأينا أنه لما مُصرت الكوفة سنة سبع عشرة جعلت خطط أهل اليمن في الجانب الشرقي منها وخطط العدنانية في الجانب الغربي[٤]. جعلت قبائل الكوفة في بادئ الأمر أعشاراً تؤلف كل قبيلة أو كل زمرة قبلية منها عشراً، ثم جعلها سعد بن أبي وقاص أسباعاً، وجعلها زياد بعد ذلك أرباعاً. وكذلك جُعلت البصرة لدى تمصيرها سنة أربع عشرة للهجرة –أو بُعيد ذلك– أخماساً وفق الانتماءات القبلية[٥]. وكان هذا التوزيع القبلي يساعد على تعبئة الجند عندما تدعو الحاجة.

كان لا بدّ –والأمر على ما بيّنا– من أن تنتهج الدولة الأموية سياسة ذكية إزاء قبائل العرب عامة توافق مصلحتها في استقرار السلطان في يدها، وكان معاوية المخطط الأول لهذه السياسة، وهي تقوم على أساس المصلحة السياسية وحدها، ومرتكزاتها الأساسية اصطناع رؤوس القبائل بالمال وبالمصاهرة في حالة السلم والبطش بلا هوادة وضرب القبائل بعضها ببعض حين تنشب الفتن والحروب.

أدرك معاوية بثاقب نظرته السياسية منذ أن كان والياً على بلاد الشام أنه بحاجة إلى تأييد قبائل الشام ومساندتها له،، فأصهر إلى قبيلة كلب اليمانية، وهي يومئذٍ أقوى قبائل الشام وأكثرها عدداً، فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبية[٦]، وسيد كلب يومئذٍ حسان بن مالك ابن بحدل، فأنجبت له ابنه يزيد. وكان لهذه المصاهرة أعظم الأثر في وقوف قبيلة كلب إلى جانب بني أمية إبّان صراعها مع مخالفيها، ولولا تأييد قبيلة كلب لما استطاع بنو أمية التغلب على أعدائهم والثائرين عليهم.

وقد ظل معاوية يجري على هذه الخطة بعد توليه الخلافة سنة ٤١هـ، فلك يكن لبني أمية كثرة عددية تأذن لهم بالاعتماد على قوتهم الذاتية، ولم يكن لهم بد من الاستناد إلى دعم قبلي لتوطيد دعائم سلطانهم، فلجؤوا إلى مصاهرة قبائل الشام القوية، فأصهر معاوية -على ما بينا إلى قبيلة كلب بزواجه من ميسون بنت بحدل ثم تزوج كذلك نائلة بنت عُمارة الكلبية.

وقد جرى خلفاء بني أمية بعد معاوية على هذه الخطة في تألف القبائل من طريق المصاهرة، ولاسيما قبيلتا كلب وقيس عيلان، وهما أقوى قبائل الشام عصرئذٍ، فأصهر مروان بن الحكم إلى بني جناب الكلبيين بزواجه من ليلى بن زبّان(٧)، وأصهر إلى قبيلة بني كلاب القيسية بزواجه من قُطيّة بنت بشر بن عامر، وهي أم بشر بن مروان(٨)، وكذلك فعل ابنه عبد الملك بعده فأصهر إلى بني عبس القيسيين بزواجه أم الوليد بنت العباس العبسية(٩)، ثم جرى سائر خلفاء بني أمية على هذه الخطة. وقد أثمرت هذه الخطة ثمراتها فكانت القبيلة تساند الخليفة الذي أصهر إليها أو التي كانت أمه منها.

على أن الإصهار إلى إحدى القبائل كان ربما أدّى بالمقابل إلى تعصب الخليفة لقبيلة أصهاره وإيثارها على القبائل الأخرى بالولايات والهبات، فنسمع خالد بن يزيد يقول مثلاً:

أحبّ بني العوّام طُراً لحبّها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا(١٠)

وانحاز الوليد بن يزيد إلى أخواله من قيس عيلان -إذ كانت أمه من ثقيف- فتعصّب على اليمانية وبطش بزعمائهم(١١).

على أن المصاهرة لم تكن وحدها دافع الانحياز إلى قبيلة بعينها، وإنما كانت هناك في أغلب الأحوال دوافع سياسية أيضاً.

والمرتكز الثاني في سياسة بني أمية إزاء القبائل هو سياسة تألف رؤوس القبائل واصطناعها اجتلاباً لولائها ومساندتها. فكانوا يغدقون المال والهبات على أسياد القبائل ويقرّبونهم منها ويُعلون منزلتهم، وقد يولّونهم الولايات تألُّفاً لهم. ومن ذلك أنه بعد توقف الحرب بين قيس وتغلب بالجزيرة قرّب عبد الملك بن مروان زفر بن الحارث الكلابي، سيد القيسية، وأجلسه إلى جواره على سريره تألُّفاً له وللقيسية، وكانوا قوة لا يستهان بها في بلاد الشام، وقد غاظ صنيعه هذا الأخطل شاعر تغلب، فأنكر على عبد الملك تقريبه إياه وذكّره بقولة زفر المشهورة:

فقد ينبت المرعى على دِمن الثرى ... وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فلما سمع عبد الملك البيت لم يتمالك نفسه من ضرب زفر برجله وإلقائه عن سريره وقال: أذهب الله حزازات تلك الصدور(١٢).

والمرتكز الثالث هو اللجوء إلى سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حين تثور الفتن وتضطرب أمور الدولة ويتعرّض سلطانهم للخطر، وحين كانت القبائل تشق عصا الطاعة عليهم، ويصدق على هذه الخطة مبدأ "فرّق تسُد". وقد اتبع ملوك بني أمية وولاتهم هذه الخطة أكثر من مرة. ولاسيما في مستهلّ حكمهم. وممن لجأ أليها زياد بن أبي سفيان حين تولّى إمارة العراق، بل إنه لجأ إليها منذ أيام علي بن أبي طالب، فقد أشار على ابن عباس بذلك حين استشاره في أمر القبائل واضطراب الأمور فقال له: "اضرب من عصاك بمن أطاعك". فلما وُلّي زياد البصرة بعد ابن عباس اتّبع هذه الخطة عينها، وعلم ابن عباس حينئذٍ أن زياداً محضه النصيحة حين أشار عليه بهذا الرأي(١٣). ولجأ زياد إلى هذه الخطة أيضاً إبّان فتنة ابن الحضرمي سنة ٣٨هـ(١٤).

وسار على هذه الخطة كذلك عبد الملك بن مروان حين كانت الأمور مضطربة في الشام والعراق، وفقد غضّ الطرف عن الفتن التي نشبت بالجزيرة بين قيس عيلان

وكلب ثم بين قيس عيلان وتغلب، ولم يحاول إصلاح ذات البين إلا بعد أن استقر الأمر في يده وقضى على مصعب بن الزبير في العراق.

وسلك أخوه بشر بن مروان خطة إثارة العصبيات القبلية حين ولاّه عبد الملك إمارة الكوفة ولكن من طريق آخر هو إغراء الشعراء بعضهم ببعض وإثارة العداوة بينهم. كان الشاعر يأتيه فيطلب إليه هجاء شاعر آخر. ثم يبادر بإرسال القصيدة إلى الشاعر المهجوّ ويطلب إليه نقضها وهذا تثور العداوة بين الشاعرين ويستحرّ الشاعر التهاجي بينهما وينشر كل منهما مخازي قبيلة خصمه، فتثور الأحقاد والعداوات بين الحيّين. وبشر هو الذي أثار التهاجي بين جرير والأخطل[١٥]، وبين جرير وسُراقة البارقي[١٦]، وكان يحلو لخلفاء بني أمية أحياناً التحريش بين أشراف القبائل فيقوم التفاخر بينهم بدافع العصبية. دخل عياش بن الزبرقان التميمي على عبد الملك يوماً وعنده روح بن زنباع الجذامي، فقال عبد الملك لعياش: يا عياش، أما ترى هذا اليماني يفخر عليك بملوك اليمن! فما لبث أن لجّ التفاخر بين الرجلين وتعصب كل منهما لقومه[١٧].

والمرتكز الرابع في السياسة الأموية إزاء قبائل العرب هو اللجوء إلى البطش والشدة حين تشقّ إحدى القبائل عصا الطاعة عليهم وتأبى الانقياد لسلطانهم، فصالح الدولة فوق أي اعتبار آخر. فكذلك نرى أن معاوية، مع ما عُرف به من الحلم وإيثار اللين على البطش، يولّي زياداً العراق فيجنح إلى البطش والشدة ليقمع الفتن في العراق ويحمل قبائلها على الطاعة لبني أمية، فكان معاوية يتّبع سياسة الملاينة في كان واليه زياد يجنح إلى العنف والبطش، وحين أنكر زياد على معاوية جنوحه إلى التسامح والملاينة أجابه معاوية بقوله: "لا ينبغي لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة، فيستريح الناس فيما بيننا"[١٨]. ومع ما عرف به معاوية من إيثار اللين والتسامح لم يتردد في قتل حجر بن عديّ حين وجد أن الحزم في قتله، درءا لاتساع الفتنة[١٩].

وأذن لبسر بن أرطأة حين وجهه إلى المدينة ومكة أن يلجأ إلى الشدة والبطش فيقتل خلقاً كثيراً ممن أعان على قتل عثمان. وكذلك كان ولاة بني أمية لا يترددون في أخذ القوم بالشدة والعنف حين يخلعون طاعة بني أمية، وكان أشدهم في ذلك الولاة الثقفيين: زياداً وابنه عُبيد الله والحجاج بن يوسف ويوسف بن عمر.

تلك هي مرتكزات السياسة الأموية إزاء القبائل عامة، وسنقف الآن عند سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة خاصة.

## ٢- سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة:

### آ- بنو أمية وقريش في الحجاز:

لقريش خصوصية ليست لغيرها من القبائل، فهي قبيلة الرسول عليه السلام، وإليها ينتمي الخلفاء الراشدون وبنو هاشم وبنو أمية. وقد استقر لدى جمهور المسلمين أن الخلافة ينبغي أن لا تخرج عن قريش. ومنذ أن حُسم النزاع حول خلافة رسول الله في سقيفة بني ساعدة لصالح المهاجرين انتقل النزاع على الحكم إلى الدائرة القرشية، فتنازعت بطونها حول من هو أولى بالأمر. وقد حُلَّ النزاع بادئ الأمر باللجوء إلى الرأي الغالب أو الشورى، فتولّى الخلافة أولاً أبو بكر وهو من بني تيم بن مرة، ثم تولاها عمر بن الخطاب وهو من بني عدي بن كعب، ثم صارت إلى عثمان وهو من بني أمية، وآلت آخر الأمر إلى علي بن أبي طالب الهاشمي النسب. ومنذ ذلك الحين برز على نحو واضح اتجاهات متعارضان: أحدهما يرى أن الأمر لا ينبغي أن يخرج عن بني هاشم، فآل البيت أحق بالخلافة من سائر بطون قريش للقرابة من رسول الله عليه السلام. وكان من الطبيعي أن يتجه أنصار هذا الرأي إلى علي بن أبي طالب وسلالته لأن الرسول عليه السلام لم يكن له أبناء يخلفونه، وتفضيل علي يقوم على كونه صهر رسول الله وابن عمه وعلى بلائه في الذود عن رسول الله ونصرته، وهذا قبل أن تبرز فكرة الوصي التي استند إليها جمهور الشيعة فيما بعد. والاتجاه الثاني

يقف إلى جانب معاوية والي الشام في إبائه مبايعة علي ومطالبته بدم عثمان ومعاقبة قتلته. وما لبث هذا الاتجاه أن تبلور في صورة حزب سياسي يناصر بني أمية ويؤيد صيرورة الأمر إليهم. وبعد مقتل علي وتناول ابنه الحسن أجمع المسلمون على مبايعة معاوية عام ٤١هـ.

وما كاد الأمر يتم لمعاوية حتى جعل دمشق حاضرة لملكه وأخذ يهيئ الجو لجعل الخلافة وراثية في بني أمية ووقفاً عليهم وإلغاء مبدأ الشورى في اختيار خليفة المسلمين. ولم يكن يدور في خلد أشراف قريش أن الخلافة ستغدو وراثية بعد أن كانت شورية. ولم يسفر معاوية عن نيته إلا في أواخر عهده (سنة ٥٦هـ) حين وجد الأسباب مهيأة لجعل الخلافة بعده في ابنه يزيد، فأخذ يتألف رؤوس القبائل وأشرافها ويصطنعها بالمال والوعود، وأخيرا تم الأمر كما أراده ولم يخرج عنه إلا خمسة نفر هم: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عباس[٢٠].

وهنا نجد وثيقة هامة توضح لنا خبرة معاوية السياسية وثاقب نظرته، فقد ترك لابنه يزيد وصية تبين له كيف ينبغي أن يتصرف إزاء هؤلاء الذين يتوقع أن يأبوا مبايعته، ويقول في عهده هذا: "... وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيما. وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، وليس له همة إلا في النساء واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إرباً إربا"[٢١].

ذاك كان موقف معاوية ممن توقع خلافهم لابنه يزيد، وكانت سياسة معاوية طوال مدة خلافته سياسة تآلف واسترضاء، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصاً على إلهاء أشراف قريش وأبنائهم عن المشاركة في الحياة السياسية، فكان يغدق الأموال عليهم لينصرفوا إلى متع الحياة ولذائذها ويتجنبوا الخوض في أمور السياسة والحكم. وقد اتبع خلفاء بني أمية بعد معاوية هذه الخطة، ولكن كان بينهم بعض الاختلاف في إنفاذها، فكان بعضهم أميل إلى الأخذ بخطة العنف، شأن يزيد بن معاوية مثلاً. ومهما يكن من أمر يمكن القول إن معاوية كان واضع "استراتيجية" التعامل مع قبيلة قريش وأشراف القبائل، وقد استطاع بحنكته السياسية تجنب الاصطدام بقريش طوال سني حكمه العشرين، وكان بعض أشراف قريش ينعمون في عهده بثراء يحسدهم عليه رجال القبائل الأخرى، وكانوا يقتنون العدد الوفير من العبيد والموالي، ويغشى بعضهم مجالس الغناء في مكة والمدينة.

وفي صدر العصر الأموي كانت طوائف من قريش قد استقرت في الأمصار، ولكن جمهرتها ظلت مقيمة في الحجاز: في مكة والمدينة والطائف. وقد ظل بنو أمية مقيمين في الحجاز إلى أن أخرجهم منها عبد الله بن الزبير حين خلع طاعة بني أمية، فتوجهوا إلى الشام واستقروا فيها، وكان صنيع ابن الزبير خطأً سياسياً جسيماً لأنه أتاح لهم اجتماع كلمتهم على مروان بن الحكم(٢٢).

وقد حرص خلفاء بني أمية بعد معاوية على صرف القريشيين في الحجاز وغيره عن الاشتغال بالسياسة بالوسائل التي ذكرناها، فكانوا يغدقون المال على أشراف قريش ويولّونهم الولايات ليشغلوهم عن معارضة حكمهم. إلا أن معاوية كان يختار ولاة الحجاز من بني أمية ليطمئن إلى ولائهم، وممن ولاهم على مدن الحجاز مروان بن الحكم، وخالد بن العاص، وسعيد بن العاص، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان(٢٣). فلم يولِّ طوال مدة حكمه مكة والمدينة إلا ولاة من بني أمية.

وقد سار عبد الملك بن مروان على خطة معاوية في اختيار عماله على مكة والمدينة من بني أمية، إلا أنه خالف هذه السنة في بعض الأحيان فولّى الحجاج بن يوسف على مكة والمدينة بعد قضائه على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ(٢٤)، وولى هشام بن اسماعيل المخزومي المدينة سنة ٨٢هـ(٢٥).

وقد سار بنو أمية على خطة التألّف والاسترضاء إزاء شعراء قريش في الحجاز ليلهوهم عن قول الشعر السياسي ومعارضة حكمهم، فانصرف جلّهم إلى اللهو والتغزل بالنساء، صنيع عمر بن أبي ربيعة والعرجيّ والحارث بن خالد المخزومي، وحين وقف عبيد الله بن قيس الرقيّات، وهو من بني معيص بن عامر بن لؤي، إلى جانب مصعب بن الزبير وقال فيه أماديحه الرائعة سخط عليه عبد الملك وطارده فاضطر إلى الاستخفاء ولم يجد بداً آخر الأمر من التماس عفوْ الملك، فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فاستأمن له عبد الملك ، فوفد إليه ابن الرقيات وأنشده قصيدته في مدحه التي يقول فيها:

يعتدل التاجُ فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهبُ

فيغضب عبد الملك ويقول له: "يا بن قيس، تمدحني بالتاج كأنني من العجم وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهابٌ من الله ... ه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

ملكُه ملك عزة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء

أما الآن فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً"(٢٦).

بيد أن بني أمية ما كانوا يترددون في انتهاج خطة البطش وسفك الدماء إزاء قريش في الحجاز حين يجنح بعض رجالها إلى خلع طاعتهم -وذلك هو المرتكز الثاني في

سياسة بني أمية كما قدّمنا- وقد رأينا معاوية يوصي ابنه يزيد بتقطيع عبد الله بن الزبير إرباً إرباً إذ ظفر به.

أول معارضة لحكم بني أمية قام بها القرشيون في الحجاز كانت ثورة الحسين بن علي، فقد كاتبه أهل الكوفة ودعوه أن يقدم عليهم ليناهضوا بني أمية معه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليقف على أخبارهم ويتحقق من اجتماع كلمتهم وصحة عزيمتهم، فقدم الكوفة ونزل دار هانئ بن عروة المرادي، فاختلفت إليه الشيعة تبايع للحسين، فلما بلغ النبأ يزيد عزل عامله على الكوفة النعمان بن بشير وضمّ ولاية الكوفة إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة، فقدم ابن زياد واحتال في صرف أهل الكوفة عن ابن عقيل ثم ظفر به وقتله. وكان ابن عقيل قد أرسل إلى الحسين كتاباً يبلغه فيه أن الكوفة قد بايعوه ويدعوه إلى القدوم عليهم، فقدم الحسين بمن معه من آل بيته وأنصاره سنة ٦١هـ، فوجّه إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقّاص وأمره ألاّ يمكنّه من الرجوع إلى المدينة وأن يطلب منه النزول على حكم يزيد، ولم يكن ليزيد حلم أبيه ولا ثاقب نظرته السياسية فلم يعمل بوصاة أبيه إذ أوصاه بالحسين خيراً لما بينهما من صلة الرحم وإنما اتّبع خطة البطش والتنكيل، وانتهى الأمر بمصرع الحسين ومن معه سنة ٦١هـ وبعث ابن زياد برأسه إلى الشام(٢٧). وكان قتل الحسين ووقعة الحرة من أشد ما أنكره المسلمون على يزيد.

ومنذ ذلك الحين سار بنو أمية على خطة البطش وسفك الدماء إزاء بني هاشم كلما خلع أحدهم طاعتهم، لأنهم رأوا فيهم أخطر منافس لهم على الحكم، فلما ثار زيد بن علي سنة ١٢٢هـ بالكوفة قتله يوسف بن عمر وصلبه ثم ثار ابنه يحيى بخراسان سنة ١٢٥ وانتهى أمره بالقتل وكذلك باءت ثورة عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ هـ بالإخفاق فسجن ومات في سجنه(٢٨). على أنه منذ مقتل الحسين بن علي لم يقم بنو هاشم المستقرون في الحجاز بأي ثورة على بني أمية حتى قيام الدولة العباسية.

والثورة الثانية التي قام بها القرشيون في الحجاز على بني أمية كانت ثورة عبد الله بن الزبير. كان ابن الزبير قد اعتصم بمكة ولازم البيت الحرام وأطلق على نفسه لقب "العائذ"، وكانت نفسه تحدثه منذ وفاة معاوية بالدعوة إلى نفسه، ولكنه كان يعلم أن أهل الحجاز لم يكونوا ليبايعوه والحسين على قيد الحياة.

وكان على المدينة يومئذٍ الوليد بن عتبة، فعزله يزيد وولّى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق سنة ٦٠هـ وأمره بقتال ابن الزبير، فوجّه عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير إلى مكة لقتال أخيه عبد الله، وكان بين الأخوين عداوة شديدة، ولكن أنصار عبد الله هزموا جيش بني أمية وسجن عبد الله أخاه في سجن عارم[٢٩]، وحين بلغه مصرع الحسين سنة ٦١هـ خلت له الساحة فدعا إلى نفسه وبايعه أهل مكة.

وفي سنة ٦٣هـ يثور أهل المدينة ويخلعون طاعة يزيد ويخرجون عامله عليها عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وبذلك تخرج مكة والمدينة عن طاعة بني أمية، فيبادر يزيد بإرسال جيش من أهل الشام عليه مسلم بن عقبة المُرّي لقتال الخارجين عليه في المدينة ومكة. وبعد أن فرغ مسلم بن عقبة من إخضاع أهل المدينة بعد أن أوقع بهم في وقعة الحرّة شخص إلى مكة لقتال ابن الزبير سنة ٦٤هـ، وقد رأينا معاوية يوصي ابنه يزيد إذا ظفر بابن الزبير أن يقطّعه إرباً إرباً. على أن مسلم بن عقبة كان مريضاً منذ أن قدم من الشام، فلما دنا من مكة أحسّ بدنوّ منيته فولّى مكانه على جيش أهل الشام الحُصين بن نُمير السكوني امتثالاً لأمر يزيد، وما لبث أن توفي، فقدم الحصين وجيش الشام على ابن الزبير مكة وقد بايعه أهلها وأهل الحجاز كافة، وقد وافى ابن الزبير نفر من أهل المدينة ممّن شهدوا وقعة الحرّة كما وافاه الخوارج وقاتلوا معه.

حاصر الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير وأنصاره في مكة أربعة وستين يوماً ورموا البيت الحرام بالمجانيق وحرقوه. وفي أثناء الحصار توفي يزيد بن معاوية في

ربيع الآخر من سنة ٦٤هـ، وقد ظل الحصين يقاتل ابن الزبير وأنصاره أربعين يوماً قبل أن يبلغه نبأ موت يزيد، وبلغ الخبر عبد الله بن الزبير قبله فأنبأه به فقفل راجعاً إلى الشام.

ويذكر الطبري أن الحصين بن نمير عرض على ابن الزبير أن يقدم معه الشام فإن أهلها سيبايعونه ولن يختلف عليه اثنان، ولكن ابن الزبير يأبى مغادرة مكة ثم يندم على تفويته هذه الفرصة(٣٠).

بعد وفاة يزيد ووفاة ابنه معاوية الثاني اضطربت الأمور في الشام وسائر الأمصار إذ لم يبقَ من أبناء يزيد من هو أهل لتولّي الخلافة. وأدّى هذا إلى انتقال الحكم من البيت السفياني إلى البيت المرواني فتولّى مروان بن الحكم الخلافة أواخر سنة ٦٤هـ. وفي عهده حدثت موقعة مرج راهط بين أنصار بني أمية -وجلّهم من اليمن- وأنصار ابن الزبير- وجلّهم من قيس عيلان- وانجلت الوقعة عن هزيمة أنصار ابن الزبير ومقتل قائدهم الضحّاك بن قسي الفهري، على أن سلطان ابن الزبير امتد فشمل الحجاز والعراق وخراسان ولم يبقَ في يد بني أمية إلا الشام.

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ، واستتبت له الأمور في الشام بعد قتله عمرو بن سعيد الأشدق لم يكن له همّ إلا القضاء على عبد الله بن الزبير. وقد بدأ بمصعب بن الزبير والي العراق فاستطاع بدهائه أن يستميل إليه رؤوس قبائل العراق بالمال والوعود بالتأمير تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى، فانفضّ أكثرهم عن مصعب. وقدم عبد الملك لقتال مصعب سنة ٧١هـ، بعد أن استوثق من استمالة رؤوس القبائل، وقد طلب إليه بعض خلصائه أن يقيم في دمشق ويرسل إلى مصعب من يقاتله ولكنه أبى إلا الشخوص إليه بنفسه وعلّل ذلك بقول يدلّ على أن براعته السياسية وثاقب نظره إذ قال: "إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له، وإني أجد نفسي أني بصير بالحرب،

شجاع بالسيف إن أُلجئت إلى ذلك؛ ومصعب في بيت شجاعة، أبوه أشجع قريش، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يحبّ الخفض، ومعه من يخالفه ومعي من ينصح لي"[٣١].

وقد تحقق مصعب من الهزيمة حين تخلّى عنه أهل الكوفة وخذلوه، صنيعهم بالحسين قبله. ودارت الدائرة على مصعب في موقعة دير الجاثليق بمسكن سنة ٧١هـ، إذ انفضّ عنه رؤوس القبائل الذين كان عبد الملك قد وعدهم ومنّاهم، فقُتل مصعب وقتل قائده ابراهيم بن الأشتر ودانت العراق لعبد الملك[٣٢].

بعد مقتل مصعب وانقياد العراق وخراسان لعبد الملك لم يبقَ في يد ابن الزبير إلا الحجاز، فوجّه عبد الملك الحجاج بن يوسف في جيش كثيف من أهل الشام فحاصر ابن الزبير بمكة أواخر سنة ٧٢هـ، ودام الحصار ما يزيد على ستة أشهر ورمى الحجاج الكعبة بالمجانيق.. وأخذ أصحاب ابن الزبير ينفضّون عنه ويأتون الحجاج وقد أمنَهم، حتى لم يبقَ إلا قلة من أنصاره، وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخُبيب، واستشار عبد الله أمه فأشارت عليه بالمضي في القتال، فالقتل خير له من أن يمكّن غلمان بني أمية من رقبته يتلعّبون بها. فخرج إلى القوم فقاتل حتى قُتل سنة ٧٣هـ، وبعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك وبايع أهل الحجاز لعبد الملك[٣٣].

منذ مقتل عبد الله بن الزبير لم يقم القرشيون في الحجاز بأية ثورة ولم يشاركوا في أية فتنة حتى نهاية العصر الأموي، فقد يئس أشراف قريش الحجازيون من انتزاع الخلافة من أيدي بني أمية فأخلدوا إلى السكينة ولزموا الطاعة وانصرفوا عن معارضة بني أمية. ولكن بني هاشم المقيمون في العراق حاولوا -على ما بيّنا- القيام ببعض الثورات ولكنها انتهت كلها بالإخفاق إلى أن استطاع العباسيون الهاشميون إسقاط الحكم الأموي سنة ١٣٢هـ، وقنع القرشيون في الحجاز بالمشاركة في حركة الفتح التي نشطت منذ زمن الوليد بن عبد الملك.

### ٣- بنو أمية والأنصار في المدينة:

هاجرت منذ بداية حركة الفتح الإسلامي طوائف من الأنصار إلى الأمصار المحدثة – وإلى بلاد الشام خاصة– وظلت طوائف أخرى مقيمة في المدينة. وممن هاجر إلى الشام سيد الأنصار في صدر العصر الأموي النعمان بن بشير.

خرج الأمر من يد الأنصار، أوسهم وخزرجهم، إثر اجتماع السقيفة، ولم يعد لهم أمل في تولّي الخلافة وآل الأمر إلى قريش. وقد اضطر الأنصار إلى قبول الأمر الواقع وبايعوا لأبي بكر ثم لعمر ثم لعثمان. ولما نشبت الفتنة أيام عثمان وقفت جماعة قليلة من الأنصار إلى جانب عثمان، وحاول محمد بن مسلمة الأنصاري أن يردّ المصريين عنه. وممن كان هواه مع عثمان حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام وكعب بن مالك. وانحازت طائفة أخرى إلى صف الثائرين به وكان من أشد المحرضين عليه منهم عمرو بن حزم الأنصاري[٣٤]. ولما حصره القادمون من مصر في بيته تخلّى عنه الأنصار كما تخلى عنه كثرة المهاجرين. وقد لام حسان بن ثابت قومه بني النجار لامتناعهم من نصرته، ومن قوله في ذلك:

أوفت بنو عمرو بن عوف نَذرها        وتلوثت غدرا بنو النجار

ونسوا وصاةَ محمد في صهره        وتبدلوا بالعزّ دار بوار

أتركتموه مفردا بمضيعة        تنتابه الغوغاء في الأمصار

لهفان يدعو غائثا أنصاره        يا ويحكم يا معشر الأنصار[٣٥]

فلما قتل عثمان بايعت الأنصار عليّا إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد

بن ثابت، وهؤلاء جميعاً كانوا من العثمانية[٣٦]. وأبى بنو أمية في المدينة كذلك مبايعته فمضى فريق منهم إلى الشام ولحق بمعاوية ومضى فريق آخر إلى مكة.

فلما كانت وقعة صفيّن (٣٦-٣٧هـ)، ظاهر أنصار المدينة علي بن أبي طالب وقاتلوا تحت لوائه معاوية وأهل الشام، ومن أبرز رجالهم يومئذٍ قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري. وظاهر أنصار الشام معاوية ومنهم الحجاج بن غزية الشاعر وسُبيع بن يزيد وعلقمة بن يزيد. وكان رأس الأنصار الذين أيدوا معاوية النعمان بن بشير، وكان من القوّاد الذين أرسلهم معاوية لقتال أهل العراق بعد التحكيم، وقد كوفئ على ولائه لمعاوية بتوليه الكوفة عام ٥٩هـ [٣٧]، وبعد مقتل علي وصيرورة الأمر إلى معاوية تلكأ أنصار المدينة عن مبايعته ثم ما لبثوا أن بايعوه واستطاع معاوية استمالة سيدهم قيس بن سعد، فصالحه وبايعه بعد أن استجاب معاوية لما طلبه[٣٨].

ولم يبدِ الأنصار أي معارضة لحكم بني أمية طوال خلافة معاوية، وقد جرى معاوية على خطة المصانعة والتألّف إزاءهم، فلما جعل ولاية عهده لابنه يزيد سنة ٥٦هـ، أبدى الأنصار استياءهم كما أنكر ذلك المهاجرون في مكة، على أنهم لم يظهروا الخلاف على بني أمية إلا بعد وفاة معاوية سنة ٦٠هـ، وتولّى يزيد الخلافة.

وقد حاول يزيد استرضاءهم فعزل واليه على الحجاز عمرو بن سعيد الأشدق، وولّى مكانه الوليد بن عتبة ثم عزل الوليد وولّى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان فتى غُرّاً حدثاً لم تحنّكه التجارب. وقد أرسل إلى يزيد وفداً من أهل المدينة من الأنصار والمهاجرين فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، فقدموا على يزيد سنة ٦٢هـ، فأكرمهم وأعظم جوائزهم، جرياً على خطة التألف التي سار عليها أبوه، ولكنهم ما كادوا يعودون إلى المدينة حتى أظهروا شتم يزيد وطعنوا في دينه وخلقه وأشهدوا الناس على خلعه، فتابعهم الناس وأخرجوا والي يزيد من المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة وولّوه عليهم، ثم طاردوا بني أمية ومواليهم في المدينة. وكانوا نحو ألف

رجل -فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم فحصرهم الناس فيها،فاستغاث بنو أمية بيزيد فلما بلغه الخبر تمثّل بقول الشاعر:

لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيتي فبدّلت قومي غِلظةً بليان

ولم يرَ يزيد بعدئذٍ بُدّاً من اللجوء إلى القوة -عملاً بالخطة التي وضحناها قبل- فوجّه إليهم مسلم بن عُقبةِ المُرّي سنة ٦٣هـ، وهو يومئذٍ شيخ كبير فريسة للمرض، فندب أهل الشام لقتال الأنصار والمهاجرين في المدينة، ومكة.

توجّه مسلم بجيشه إلى الحجاز، وقد أمره يزيد أن يبدأ بدعوة القوم إلى الطاعة فإن أبوا فليقاتلهم وليستبح مدينتهم. فأقبل مسلم بالجيش فلما دنا منها أخرج أهلها بني أمية منها فلقوا ابن عقبة بوادي القرى. وقدم جيش أهل الشام فأتى المدينة من قبل الحرّة، وأنذر مسلم أهلها بالرجوع إلى الطاعة وأجّلهم ثلاثاً، فأبى الأنصار المهاجرون الدخول في طاعة يزيد، وكان على جماعتهم عبد الله بن حنظلة. وما لبث القتال أن نشب وانجلت المعركة عن مصرع عبد الله بن حنظلة وهزيمة أهل المدينة، وأباح ابن عقبة المدينة لجنده ثلاثة أيام يقتلون وينهبون، وقتل ابن عقبة صبراً نفراً من وجوه الأنصار وقريش[٣٩].

اضطر الأنصار في المدينة بعد أن وقع بهم يزيد يوم الحرّة إلى الدخول في طاعة بني أمية مكرهين وأخلدوا إلى السكينة، فلم يشاركوا في أي فتنة من الفتن التي تمخّض عنها عصر بني أمية بعدئذٍ. أما سيد أنصار الشام النعمان بن بشير فقد انحاز إلى عبد الله بن الزبير، وكان والياً على حمص، وتخلّى عن بني أمية، فلما انتهت وقعة مرج رهط سنة ٦٤هـ، بهزيمة أصحاب ابن الزبير ومصرع قائدهم الضحاك بن قيس فرّ

النعمان من حمص، فلحق به أحد الكلاعيين فقتله وبعث برأسه إلى مروان بن الحكم(٤٠).

**٤- بنو أمية وسائر قبائل الجزيرة:**

سار بني أمية إزاء سائر قبائل الجزيرة على الخطة عينها التي سلكوها إزاء قريش والأنصار، على أنهم لم يكونوا يعنون كثيراً برعاية هذه القبائل والاهتمام بشؤونها، وذلك أن عظّم قبائل الجزيرة كان قد نزح عن مواطنه فيها إلى مواطن جديدة في الأقطار المفتوحة، وكان الرسول عليه السلام وخلفاؤه وأمراؤهم وقادتهم لا يزالون يحضّون القبائل على الهجرة ويرغبّونها بما فيها من خيرات، على نحو ما ذكرنا آنفاً، فاندفعت هذه القبائل تغادر مواطنها في الجزيرة وتلتمس لها مواطن جديدة في الأقطار المفتوحة، يحدوها إلى ذلك الرغبة في حياة الرفاهية والنعمة، حيث يتوافر الماء والنبت والمراعي الخصبة والطعام الكثير والمناخ الطيب، وشارك أكثرهم في حركة الفتح إعلاءً لكلمة الله ورغبة في المغانم الوفرة، فلم يبقَ في الجزيرة إلا من يؤثر حياة البادية والتقشف على حياة الحضارة والرفاهية، ومن يتشبث بأرضه حباً بوطنه، وهم قلة. ولدينا مثال على مشهور على إيثار حياة البادية القشفة على حياة القصور والرفاهة ما قالته ميسون بنت بحدل، زوج معاوية وأم يزيد ابنه من أبيات تعبر فيها عن تشوقها إلى حياة البادية وإيثارها العيش في خباء تخفق فيه الريح على العيش في القصور الفخمة ومنها:

لَبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه ... أحبّ إليّ من قصر منيف
ولُبسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبُّ إليّ من لُبس الشُفُوفِ(٤١)

وقد اختار البقاء في جزيرة العرب بعض الشعراء المشهورين كجرير بن عطية الذي كان يقيم باليمامة ويختلف إلى البصرة، وكذي الرمة الذي كان مقيماً بالدهناء. وكان

هؤلاء الشعراء يقيمون بالبادية ويختلفون إلى الحواضر للامتياز أو لمديح الخلفاء والأمراء أو لإنشاد الشعر في الأسواق.

وكان المهاجرون من سكان البادية أكثر عدداً ممن هاجر إلى الحواضر من قاطني المدن والحواضر كمكة والمدينة والطائف واليمامة وحواضر اليمن، وذلك لخشونة الحياة في البادية وقلة خيراتها. وليس في وسع الباحث أن يعرف على وجه الدقة عدد من نزح من مختلف القبائل من ديارهم في الجزيرة إلى المواطن الجديدة، ولكننا حين نرجع إلى ما توافر لدينا من إحصاءات لأعداد القبائل التي نزلت الحواضر الشامية والعراقية وفي خراسان ومصر وغيرها يلفت نظرنا كثرة عددهم. وكان النازحون من قبائل قيس عيلان وتميم واليمن أكثر عدداً من سائر القبائل.

ولتقديم صورة تقريبية عن أعداد هؤلاء المهاجرين نستعين ببعض ما ورد في المصادر التاريخية القديمة من إحصاءات. فقد ذكروا مثلاً أن قتلى وقعة الجمل من أهل البصرة كانوا عشرة آلاف ومن أهل الكوفة خمسة آلاف[٤٢]. وأن عدد مقاتلة العرب الذين أعدّهم علي لقتال معاوية من سكان الكوفة وحدها بلغ سبعة وخمسين ألفاً، خلاف عدد الموالي[٤٣]. وأحصى ديوان الجند أيام ولاية زياد على العراق مقاتلة فبلغوا ثمانين ألفا وعيالهم مائة وعشرين ألفا، وبلغ عدد مقاتلة الكوفة يومئذٍ ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفا[٤٤].

انتقل إذن مركز الثقل القبلي من العصر الأموي من الجزيرة إلى الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة، ولم يعد لقبائل الجزيرة وزن سياسي يُعتدّ به، باستثناء قبيلتي قريش والأنصار في مكة والمدينة، ولم يكن للقبائل التي استقرت في الجزيرة كبير خطر على الدولة الأموية، على نقيض قبائل العراق وخراسان، ولهذا لم تولِ الدولة الأموية كبير عناية لهذه القبائل. وكانت تختار ولاتها عليهم من الرجال الذين كانوا موضع ثقتها ولم تتعمد اختيارهم من بني أمية وحدهم، شأنها في الحجاز، وكثيراً ما

كانت هذه القبائل تتعرّض لعسف الولاة وجباة الخراج فتعلن استياءها وتذمّرها وتنكر على بني أمية سياستهم إزاءها وتتهمهم بالخروج عن كتاب الله وسنة نبيه. ومن هنا نجد بعض قبائل الجزيرة تشارك في الحركات السياسية المناهضة لبني أمية، ولاسيما في ثورات الخوارج، فكان بنو أمية يقمعون هذه الثورات بأشد العنف.

وأول ظهور للخوارج على مسرح الأحداث في الجزيرة كان عام ٦٤هـ، حين قدم الخوارج على عبد الله بن الزبير وقاتلوا معه الحصين بن نمير. وبعد رجوع جيش بني أمية إلى الشام إثر وفاة يزيد بن معاوية فارق الخوارج ابن الزبير لأنه لم يستجب لمطالبهم فصار أبو طالوت البكري وأبو فُديك عبد الله بن ثور، وهما من بني قيس بن وثعلبة البكريين، وعطية بن الأسود اليشكري، إلى اليمامة، فوثبوا بها وعليهم أبو طالوت، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة بن عامر الحنفي(٤٥).

وفي سنة ٧٢هـ، غلب أبو فُديك على البحرين وقتل نجدة بن عامر، فوجّه إليه والي البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد -وكانت البحرين تتبع ولاية البصرة- أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف، ولكن أبا فديك يهزمه فيفرّ إلى البصرة(٤٦).

وفي سنة ٧٣هـ، وجه عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال أبي فُديك وأمره بأن يندب من شاء من أهل المصريين -البصرة والكوفة- فندب من أهلها عشرين ألفاً، فلما التقوا حاقت الهزيمة بالخوارج وقُتل أبو فُديك ونزل بالخوارج على حكم عمر بن عبيد الله فقتل منهم نحواً من ستة آلاف وأسر ثمانمائة(٤٧).

ظلّت قبائل الجزيرة بعد هذا بعيدة عن المشاركة في الأحداث السياسية التي شهدها العصر الأموي حتى أواخر عهد بني أمية. ففي سنة ثمان ومئة تحرك الخوارج الإباضية الذين كانوا يلتزمون الهدوء طوال العصر الأموي، فظهر عبد الله طالب الحق باليمن وقدم عليه أبو حمزة الخارجي وهو المختار بن عوف الأزدي من البصرة فبايعه على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان.

ونجد في الأغاني تفصيل خبر عبد الله وأبي حمزة[٤٨]، وخلاصة ما ذكره أن عبد الله ابن يحيى الكندي كان من حضرموت، وكان مجتهداً عابداً، فلم يرضَ عما رآه في اليمن من جور عمّال بني أمية وعسفهم، فكاتب إباضية العراق، فشخص إليه أبو حمزة الخارجي وبلْج بن عقبة في رجال من الإباضية، فحثّوه على الخروج، فدعا إلى نفسه وبايعه أصحابه، فقصد دار الإمارة وعلى حضرموت إبراهيم بن جبلة الكندي فأخرجه منها. ثم قدم صنعاء وعليها القاسم بن عمر الثقفي فدارت الدائرة على جيش أهل الشام واليمن ودخل طالب الحق صنعاء واستولى على اليمن كلها. ووافته الشراة من كل جانب. فلما كان موسم الحج أرسل أبا حمزة وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصبّاح إلى مكة، وعليها عبد الواحد بن سليمان، فدخلها بغير قتال. ثم مضى إلى المدينة وعليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فلقيهم أهل المدينة بقُديد، وكثرتهم من قريش، فانتصر عليهم أبو حمزة، على قلة من معه، وقتل منهم مقتلة عظيمة. ودخل أبو حمزة المدينة فخطب على منبرها خطبة طويلة مشهورة حمل فيها على بني أمية وكان مما قاله فيهم "فملكوا الأمر، وتسلّطوا فيه تسلّط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطّلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة، ويُقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها...".

فلما بلغ النبأ مروان بن محمد انتخب من عسكره أربعة آلاف وجعل عليهم عبد الملك بن عطية السعدي، وبعث أبو حمزة بلج بن عقبة في ستمئة رجل ليقاتل عبد الملك بن عطية وذلك سنة ١٣٠هـ، وقد أجلت الموقعة عن مصرع بلج وأكثر أصحابه، ورجع فلّهم إلى أبي حمزة.

ثم توجه عبد الملك إلى المدينة فلقيه أهلها جميعاً، وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم قدم عبد الملك مكة، ودار القتال بين الفريقين فكان الظفر لجيش أهل الشام، وقتل أبو حمزة

وامرأته ومعظم أصحابه. وكانت تلك آخر ثورة يقوم بها خوارج الجزيرة في عصر بني أمية إذ ما لبثت الدولة الأموية أن سقطت سنة ١٣٢هـ.

تلك كانت سياسة بني أمية إزاء قبائل الجزيرة ونتائجها وآثارها في نشوب طائفة من الفتن وفي السخط على سياستهم التي تقوم على محاباة رؤساء القبائل وإهمال سواد الناس، وفي إيثار القريشيين على غيرهم من القبائل. وبعد إخفاق المحاولات التي قام بها القرشيون لانتزاع الحكم من أيدي بني أمية وإخفاق الأنصار في ثورتهم على يزيد لم تقم أي ثورة يعتدّ بها في الجزيرة، باستثناء ثورات الخوارج القليلة التي تحدثنا عنها. ولم يكن بنو أمية يسمحون لقبائل الجزيرة أو لمن يتحدثون باسمها بمعارضة حكمهم أو انتقاد سياستهم. ومن الأمثلة على المحاولات القليلة لتوجيه النقد إلى سياسة عمال بني أمية وجباتهم، قصيدة الراعي النميري الرائعة حين وفد على عبد الملك وشكا إليه عسف الولاة وسوء حال قبيلته والمظالم التي تعرضت لها، ومنها قوله:

| | |
|---|---|
| أخليفةَ الرحمن أنا معشرٌ | حنفاءُ نسجدُ بُكرةً وأصيلا |
| عربٌ نرى الله في أموالنا | حقّ الزكاة مُنزّلاً تنزيلا |
| أخليفة الرحمن أنّ عشيرتي | أمسى سوامُهم عزين فُلولا |
| قطعوا اليمامةَ يُطردون كأنهم | قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا |
| وأتاهمْ بيحيى فشدّ عليهم | عقداً يراه المسلمون ثقيلا |
| كتبا تركن غنيّهم ذا عيلة | بعد الغنى وفقيرَهم مهزولا |
| أنت الخليفةُ عدلّه ونوالهُ | وإذا أردت لظالم تنكيلا |
| فارفعْ مظالم عيّلت أبناءنا | عنا وأنقذْ شلونا المأكولا |

إن السُّعاة عصوك حين بعثتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا

أخذوا الكرام من العشار ظُلامة منّا ويكتب للأمير أفيلا

أخذوا العريف فشققوا حيزومه بالأصبحيّة قائماً مغلولا

وقد بسط الراعي المظالم التي تعرضت لها قبيلة نمير من قبل الجباة الذين كانوا يأخذون كرام الإبل ثم يكتبون في سجلهم أنهم من صغار الإبل. فإذا امتنع العرفاء من أداء ما على قومهم ضربوا بالسياط بلا هوادة.

وقد ختم الراعي قصيدته ببيت تشتم منه رائحة التهديد بجلاء قومه عن ديارهم فقال:

ولئن بقيت لأدعونّ بطعنة تدع الفرانض بالشُّريف قليلا

فلما سمع عبد الملك هذا البيت غضب أشد الغضب وطرد الراعي ولم يجبه إلى سؤاله ولم يحظ بشيء عنده. فلما كانت السنة التي تليها جاءه الراعي فأنشده قصيدة عرض فيها سوء حال قبيلته فلجأ إلى الملاينة ولم يجنح إلى التهديد بالجلاء. ومنها قوله:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يُترك له سبدُ

واختل ذو المال والمثرون قد بقيت على التلاتل من أموالهم عُقد

فإن رفعت بهم رأساً نعشتهم وإن لقوا مثلها من قابل فسدوا(٤٩)

هذه الصورة التي عرضها الراعي لحال قبيلته لا تصدق على بني نمير وحدهم وإنما تصدق على الكثرة من قبائل الجزيرة عصرئذ. وهي تعدّ وثيقة هامة في بيان ما كانت تتعرض له بعض قبائل الجزيرة من جور بعض الولاة وعسف الجباة وسوء أمانتهم ومن تقصير الخلفاء في رعاية أمورهم.

## الهوامش

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٥٩.

(٢) أهم المراجع التي استعنت بها في تعيين هذه المواطن هي: كتاب "معجم ما استعجم" للبكري، و"سيرة ابن هشام" و "معجم البلدان" لياقوت، و"صفة جزيرة العرب" للهمذاني، و"نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للقلقشندي، و"الأغاني" للأصفهاني، و"بلاد العرب" للحسن بن عبد الله الأصفهاني (لغدة)، و "أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع" لحمد الجاسر، و"الجبال والأمكنة والمياه" للزمخشري.

(٣) ينظر في تفصيل هذه المواطن كتابنا "زهير بن أبي سلمى" ص ١٨ وما بعدها.

(٤) **فتوح البلدان** للبلاذري ٢/٣٣٩.

(٥) يرجع في بيان خطط البصرة والكوفة إلى الجزء الثاني من **فتوح البلدان**، وإلى الجزء الثالث من **تاريخ الطبري**، وإلى كتاب "خطط الكوفة" لماسينيون.

(٦) انظر **تاريخ الطبري** ٧/٢٥٤.

(٧) **نسب قريش** لمصعب الزبيري، ص ١٦٠.

(٨) **نسب قريش**، ١٦٠.

(٩) **نسب قريش**، ص ١٦٢.

(١٠) **الكامل للمبرّد** ١/٣٠٢، **أنساب الأشراف للبلاذري** ٤/٦٦.

(١١) انظر **تاريخ الطبري** ٥/٥٤١.

(١٢) **الأغاني للأصفهاني** ٢٩٦/٨.

(١٣) **تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران** ٤٠٨/٥.

(١٤) انظر تفصيل الخبر في الطبري ١١٠/٥.

(١٥) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٤٠/١، **والأغاني** ٣١٥/٣.

(١٦) **طبقات ابن سلام** ٤٤٠/١، **الأغاني** ٦٨/٨، **أنساب الأشراف** ١٧٤/٥.

(١٧) **أنساب الأشراف** ٢٥٤/١١.

(١٨) **العقد الفريد** لابن عبد ربه ١٠/٥.

(١٩) انظر تفصيل **الخبر في الطبري** ٢٥٣/٥، وما بعدها.

(٢٠) **الطبري** ٣٠١/٥ وما بعدها.

(٢١) **تاريخ الطبري** ٣٢٢/٥، المعمّرون للسجستاني، ص ١٥٥، وللعهد رواية أخرى قريبة من هذه.

(٢٢) **الطبري** ٥٣١/٥.

(٢٣) انظر **الطبري** ٢١١/٥، ٢٩٢، ٣٠٨.

(٢٤) **الطبري** ٢٠١/٦.

(٢٥) **الطبري** ٣٥٥/٦.

(٢٦) **الأغاني** ٧٨/٥.

(٢٧) انظر تفصيل مقتل الحسين في **مقاتل الطالبيين**، ص ٧٨-١٢٢، **وفي تاريخ الطبري** ٤٠٠/٥-٤٧٠.

(٢٨) انظر تفصيل خبر مقتل زيد بن علي في **مقاتل الطالبيين**، ص ١٢٧-١٥١، وفي **تاريخ الطبري** ١٨٠/٧-١٩١.

(٢٩) **الطبري** ٣٤٣/٥.

(٣٠) **الطبري** ٣٩٦/٥ وما بعدها.

(٣١) **الطبري** ١٥٧/٦.

(٣٢) تفصيل **الخبر في الطبري** ١٥١/٦، وما بعدها.

(٣٣) تفصيل خبر مقتل ابن الزبير في **الطبري** ١٨٧/٦ وما بعدها.

(٣٤) **الطبري** ٣٧٠/٤.

(٣٥) ديوان حسان بن ثابت، **تحقيق فرحات** ٣١١/١.

(٣٦) **الطبري** ٤٢٩/٤.

(٣٧) يرجع في تفصيل أخبار وقعة صفين إلى كتاب "**وقعة صفين**" لنصر بن مزاحم وإلى تاريخ الطبري ١٥/٥ وما بعدها.

(٣٨) **الطبري** ١٦٣/٥.

(٣٩) **الطبري** ٤٨٢/٥ وما بعدها.

(٤٠) **الطبري** ٥٣٩/٥.

(٤١) **الأمالي الشجرية** ٢٨٠/١، **خزانة الأدب** ٥٩٢/٣.

(٤٢) **الطبري** ٥٣٩/٤.

(٤٣) **الطبري** ٧٩/٥.

(٤٤) **فتوح البلدان** ٢/٤٢٩.

(٤٥) **الطبري** ٥/٥٦٦.

(٤٦) **الطبري** ٦/١٧٤.

(٤٧) **الطبري** ٦/١٩٣.

(٤٨) انظر **الأغاني** ٢٣/٢٢٤ وما بعدها.

(٤٩) **ديوان الراعي النميري؛ جمهرة أشعار العرب** لأبي زيد القرشي، ص١٧٢، **طبقات ابن سلام** ١/٥٠٢.

* عزين ج عزة: الفرقة. العيلة: الفقر. الغول: الداهية والهلكة. الأفيل: الصغير من الإبل. الأصبحية: ضرب من السياط. الفرائض من الإبل والغنم: ما بلغ عدده حدّ الزكاة. الشُريف: منازل بني نمير من بلاد نجد. الحلوبة: الناقة ذات اللبن. وفق العيال: على قدر حاجتهم. لم يترك له سبد: لم يُترك له شيء. اختل: افتقر. التلاتل: الشدائد. العقد: البقايا القليلة.

## مصادر البحث

١- إحسان النص، زهير بن أبي سلمى؛ دار الفكر، دمشق ١٩٨٥.

٢- الأصفهاني، أبو الفرج؛ الأغاني؛ ط. دار الكتب والهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ١٩٢٧، وما بعدها.

٣- الأصفهاني، أبو الفرج؛ مقاتل الطالبيين. تح: سيد صقر، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤- البغدادي عبد القادر؛ خزانة الأدب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥- البكري عبد الله بن عبد العزيز؛ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥م.

٦- البلاذري أحمد بن يحيى؛ فتوح البلدان، تح: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.

٧- ابن جرير الطبري؛ تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، وما بعدها.

٨- حسان بن ثابت؛ ديوانه، تح: وليد عرفات، بيروت، ١٩٧٤.

٩- حمد الجاسر؛ أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع. الرياض ١٩٦٨.

١٠- الراعي النميري؛ ديوانه، تح: نوري القيسي وهلال ناجي، بغداد، ١٩٨٠.

١١- الزمخشري محمود بن عمر؛ الجبال والأمكنة والمياه. تح: إبراهيم السامرائي، بغداد، ١٩٦٨.

١٢- أبو زيد القرشي؛ جمهرة أشعار العرب، تح: محمد علي البجاوي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٣- السجستاني أبو حاتم؛ المعمّرون ، مطبعة البابي الحلبي القاهرة.

١٤- ابن سلبام محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٤

١٥- ابن الشجري؛ **الأمالي**، طبعة حيدر أباد، ١٣٤٩هـ.

١٦- ابن عبد ربه أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: أحمد أمين والزين والأبياري، القاهرة، ١٩٤٠.

١٧- ابن عساكر؛ **تاريخ مدينة دمشق**، تهذيب عبد القادر بن بدران، دمشق.

١٨- القلقشندي شهاب الدين؛ نهاية **الأرب في معرفة أنساب العرب**، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٩- لغدة الأصفهاني، بلاد العرب، تح: حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٩٦٨م.

٢٠- ماسينيون؛ **خطط الكوفة**، ترجمة: تقي بن محمد المصعبي، صيدا، ١٩٤٦م.

٢١- المبرّد محمد بن يزيد؛ **الكامل في الأدب**، ط. البابي الحلبي القاهرة، ١٩٣٩م.

٢٢- مصعب الزبيري؛ **نسب قريش**، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٣م.

٢٣- نصر بن مزاحم؛ **وقعة صفين**، ط. البابي الحلبي، القاهرة.

٢٤- ابن هشام عبد الملك؛ **السيرة النبوية**، تح: السقا والأبياري وشلبي، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢٥- ياقوت الحموي؛ **معجم ما استعجم**، إشراف: أحمد فريد الرفاعي، القاهرة، ١٩٣٦ وما بعدها.